الرحالة جورج شو ينفورث

ذكريات شخصية وشؤون اخرى

قرأت في المقتطف جزء نوفمبر الماضي ترجمة هذا الرحالة الشهير الاستاذ النباتي المحقق جورج شو ينفورث الذي توفي في الايام الاخيرة مناهزاً التسعين من العمر

ولما كنت قد عرفت هذا الرجل عرفة شخصية منذ بضع سنوات احببت ان اضم الى هذه الترجمة الكلمات الآتية

سنة ١٩١٨ وفي آخر سني الحرب العامة كنت ببرلين بأمورية تتعلق بازالة بعض الخلافات بين الدولة العثمانية والدولة الالمانية . فاقمت اشهراً الى ان انتهت الحرب بما انتهت به . وفي اثناء اقامتي ببرلين عرفت اناساً كثيرين من رجال الالمان ولاسيما العلماء والادباء والصحفيين والاخباريين . ومن جملة هؤلاء رجل من يهود المانية اسمهُ «روتايت» كان محرراً في جريدة « الفوسيشي تسايتونغ » التي صاحبها جورج برنار وهو من معارفي ايضاً . وكان روتايت هذا يتردد الى اخواننا المهاجرين المصريين الذين كانوا هناك الاستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش والاستاذ عبد الملك حمزه ورفاقهما فتعرفت به عندهم . ودعانا مرة الى الشاي فوجدت في تلك الدعوة رهطاً من اهل الفضل منهم سيدة ادبية المانية قالت لي عند ما قدموني لمعرفتها : اي نعم انا اعرف بلادكم ولي خلطة تامة بعائلة ثريًا بك . فقلت لها : وايُّ ثريًا بك ؟ فقالت لي : ثريًا بك افلا تعرفهُ ؟ فانهُ من بلادكم . فخطر ببالي مثل « فاطمة في سوق الغزل » وقلت لها : اتدرين لو سألتك قائلاً : الا تعرفين المرماكس من المانية ؟ فقولك ثريًا بك في المملكة العثمانية كما لو قلنا المرماكس او المركو تراد في المانية . وبعد الاستيضاح علمنا انها تريد ثريًا بك الارناؤوطي احد فريد باشا الصدر الاعظم وانها تعرف البانية وتحسب ان البانية وسورية وازمير والاستانة ومصر ومكة وربما الهند وفارس كلها بلاد واحدة بينها من الفروق ما بين برلين ومونخ مثلاً . وجرى معي من هذا القبيل ان كونتاً او على قول العرب كنداً المانياً اقترح عليَّ هدية تشبك من الشرق واخبرني انهُ تعوَّد التدخين بالنارجيلة في بلادنا . فظننت انهُ وجد مرة في طرابلس الشام او في بيروت فقلت لهُ : وفي اية بلدة من بلادنا كنت ؟ قال لي : كنت في المرسلك وهناك تعلمت شرب النارجيلة . مع ان

المرسك هي في الواقع اقرب الى المانية مما هي الى سورية . ولكن الاوربي اينما وجد المسلم عدّ المكان شرقياً. هذه عقلية القوم استطردت الى ذكرها لانها مما يجب على الشرقيين علمه. ونعود الى موضوعنا وهو الذي تعرفت عند روتايت بالاستاذ الباقي الكبير شوينفورت ورأيته شيخاً ماجداً لا اقدر ان اقول شيق مائل او لعاب سائل بالتمام ولكنه كان يخلج دائماً و يتكلم بنغمة من قد شبع من السنين وكان مع هذا حافظاً قواه العقلية . ومما انذكره عنه انه لم يعمل الرحلة في باطن افريقية فحسب بل ساح في بلاد اليمن وحقق هناك نباتات وتعاشيب كانت مجهولة . وقال لي روتايت امامه ان تآليفه في النبات مدرسية وانها لا تدرّس في المانية فقط بل هي مترجمة الى الانكليزية والافرنسية وغيرها وانها تدرّس في لندن و باريز كما تدرّس في المانية. وكان في سكوت الاستاذ شوينفورت على كلام روتايت هذا علامة التصديق . فغبطت هذا الرجل على هذه الشهرة العظيمة وهذا الاخصاء الذي جعل كتبه تدرس في بلاد الاجانب الراقية وهو لا يزال حيّاً . وذلك اشبه بالامام الغزالي الذي عندما جاء الى دمشق واعتكف في صومعة من الجامع الاموي متنكراً كان يمر بحلقات الدروس و يسمع باذنه : قال الامام الغزالي . قال الامام الغزالي . وما احد يعلم انه هو الامام الغزالي . انا اقول هذا منتهى السعادة في الدنيا او على الاقل منتهى سعادة العالم في العالم

***

ومما انذكره من آثار جلستنا مع البروفسور شوينفورت او شفينفورت انه كان يخلع جلباب شيخوخته وتأخذه هزة الطرب كالشباب عندما يتحدث بدخول الالمان الى ريفا. وكان الالمان قد استولوا في ذلك الوقت على بلاد البلطيك كلها ومن جملتها ريفا سقط رأس الاستاذ فكان يقول لي : الآن اموت مستريحاً لان ريفا دخلت في حوزة المانية . فكنت اقضي العجب من كون شيخ بلغ هذه الدرجة من السن يطرب هذا الطرب كله كأنه شاب ابن ١٦ سنة لاخذ ابناء جلدته البلدة التي ولد فيها . ولكن الوطنية امرٌ عظيم . ولا شيء اعلق بقلب الانسان من حب الارض التي اول ما مس جلده ترابها . ولما زرت موسكو سنة ١٩٢١ ذهبت بحراً الى بلدة « ريفال » عاصمة « استونية » وركبنا من ريفال بقطار الحديد الى بتروغراد الى موسكو وقطعت من موسكو برّاً عن طريق « ليتونية » بالقطار فكنت ارى البلاد روسية الوسم حتى دخلت ريفا وشاهدت ما

شاهدت من انتظامها ونظافتها وسعة شوارعها ورونق فنادقها وحسن حدائقها تخلت اني في قلب المانية . ومع ان اهل ريفا ليس اكثرهم من الجنس الالماني فان اللغة الالمانية فيها هي الغالبة وكل شيء هناك ممتهُ المانية. وعندها تذكرت شغف الاستاذ شفينفورث باندماج ريفا في الوحدة الجرمانية

على اني احسب عمر الاستاذ المشار اليهِ اكثر مما ورد في الجرائد فانهُ كانت لم تخني ذاكرتي اقول ان الذي سمعتهُ من روتايت عن عمرهِ كان ٨٦ او ٨٧ سنة وهذا سنة ١٩١٨ فيكون عمرهُ يوم ذهب الى ربهِ ٩٣ سنة بالاقل . ولو لم يكن كذلك لما كان سكت على قول روتايت عن عمرهِ وكان بادر الى تصحيحهِ او كان قال لهُ : بالغت . نعم ان الرجال اسمح في هذا الموضوع من النساء . وبعض السيدات يضمرن اشد الحقد لمن يقول الحقيقة عن عمرهن فضلاً عمن يزيد فيهِ شاهدت سيدة في احدى مدن سويسرة اغرت الحكومة بسيدة اخرى وكانت سبب طردها من تلك المدينة فسألتها : ما سبب تلك العداوة ؟ فقالت لي وصلت الامور معها الى ان زعمت ان عمري ٤٠ سنة مع ان عمري ٣٨ . فلا شك ان الرجال ايضاً لا يريدون ان يعدوا شيوخاً فانين ولا يوجد احد يحب ان يزاد في عمرهِ او اذا زيد لهُ فيهِ سكت عن الاعتراض. وحسبك ان سيدنا احمد ابن حنبل رضي الله عنهُ سئل فيما اتذكر عن عمرهِ فظهر الامتعاض في وجههِ وقال للسائل : لا تسأل عما لا يعنيك

نعم انا كنت اعتقد ان الاستاذ شفينفورث مناهز الرابعة والتسعين وهيئتهُ يوم شاهدتهُ واختلاج شفتيهِ واضطراب جسمهِ وعدم تبيُّن جميع الفاظهِ كل ذلك كان يخبر عن التسعين او ما قاربها لكنني علمت بعد ذلك انهُ لم يتجاوز التاسعة والثمانين

بقي علينا ان رحلة هذا الاستاذ في قلب افريقية نقلت الى لغات عديدة من جملتها التركية وكاتب ترجمة شو ينفورث في المقتطف يقول انها نقلت الى التركية بعنوان « سياحتنامه مي دوقتور شو ينفورتك افريقا » وما اعلم لماذا لم ينقل كاتب الترجمة الاديب ان رحلة الاستاذ ترجمت الى التركية بعنوان « سياحة الدكتور او الدوقتور شو ينفورث في افريقية » بل التزم ان ينقل العنوان بالاصل التركي على زعمهِ فجاء بهِ مقلوباً فهذه العبارة حقها ان تكون هكذا « دوقتور شو ينفورتك افريقاده سياحتنامه مي » او سياحتنامهٔ دوقتور شو ينفورث افريقاده » وما لنا وما للتركي الآن

برلين ١٥ تموز شكيب ارسلان

استطراد

[المقتطف] نشكر الامير الجليل على ما اتحف المقتطف به، و بعدُ فقد ذكرت مجلة نائشر شو ينفورث في السابع من نوفمبر فقالت ما ترجمتهُ

جورج اوغسط شو ينفورث ولد في ريغا من والدين المانيين في ٢٩ دسمبر سنة ١٨٣٦ وتوفي في برلين في ٢٠ سبتمبر الماضي وقد كان من علماء الطبيعة الذين امتازوا برحلاتهم ومستكشفاتهم في الجانب الشرقي من اواسط افريقية . نشأ نباتيًّا مدرَّبًا فاختير وهو في السابعة والعشرين من عمره لكي يرتب مجاميع النباتات التي احضرها بارنم وهرتمن من السودان . واقام من سنة ١٨٦٣ الى ١٨٦٦ يبحث في نباتات مصر والبلاد المجاورة لها من الاسكندرية الى الخرطوم واسناد البحر الاحمر ومن جبال الحبشة الى البحر الازرق ثم الى بحر الغزال . وهذه الرحلة التي دامت ثلاث سنوات كانت اكثر الرحلات الافريقية ثمرةً . فقد كان غرضهُ الاول فيها البحث في نباتات البلاد لكنهُ لم يقتصر على ذلك بل بحث ايضاً في حيواناتها وجبالها واوضح ما يتعلَّق بانهارها مما كان امرهُ غامضاً فانهُ عبر النيل واتجه غرباً فكشف نهر ول[1] وحسب انهُ يصب في بحيرة شاد ونال باكتشافهِ هذا وسام مؤسس الجمعية الجغرافية الملكية ببلاد الانكليز . ودرس احوال السكان وهو اول من وصف قبائل الدوير والدنكا والبنجر والازندا او النيام نيام آكلي لحوم الناس وقد كشف ايضاً اقزام الاكا فاثبت وجود الاقزام في قلب افريقية بعد ان كان وجودهم في معرض الشك

اما في علم الحيوان فاهم ما كشفهُ نوع متنقل من الشمبانزي كشفهُ في بلاد الازندا ووجود الشمبانزي في وادي النيل لم يكن معروفاً هناك . وكشف ايضاً البغاء الرمادي وغيرهُ في تلك الجهات . اما في علم النبات فكان عملهُ واسع النطاق فانهُ كشف ان الحراج الكبيرة التي في قلب افريقية تمتدُّ شرقاً ووصف اتساق اشجارها وصفاً شعريًّا وشبهها بالاعمدة في الهياكل المصرية ونشر ذلك في كتاب سماهُ قلب افريقية طبع اولاً سنة ١٨٧٣ مزدانًا بكثير من الصور التي رسمها بيدهِ لانهُ كان رسَّامًا ماهرًا كما كان كاتبًا بليغاً فوق ما اشتهر بهِ من شدة الانتباه والملاحظة . واذا اعتبرنا ما في هذا الكتاب

(١) نهر كبير في قلب افريقية يخرج من بلاد المنبتو ويجري غرباً الى الدرجة ١٩ من الطول الشرقي يميل جنوباً ويصب في نهر الكنجو وقد سمي شويفنورث الاكشفه انه يتصل بنهر شاري ويصب في بحيرة شاد فخطأ في ظنه

من بلاغة الانشاء والاستيعاب في وصف البلاد وسكانها وما فيها من نبات وحيوان واضفنا الى ذلك ان الزمن الذي كان فيه كانت الخاسة في اوجها وتطلب العاج على اشده وجدنا كتابهُ « قلب افريقية » قلما فاقهُ كتاب آخر من كتب روّاد افريقية

بعد ذلك لم يعد الى قلب افريقية بل رحل رحلات اخرى الى جهات اخرى فمن سنة ١٨٧٣ الى سنة ١٧٧٤ كان في صحراء ليبية مع رولفس وبين سنة ١٨٧٦ و١٨٨٨ ذهب مراراً الى الجنوب الغربي من جزيرة العرب وكان في غضون ذلك يقيم في القاهرة واسس فيها الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ تحت رعاية الخديوي اسمعيل وكان يبحث في نبات الجانب الاسفل من وادي النيل وجيولوجيته . وسنة ١٨٨٦ جعل اقامتهُ في برلين ولم يغادرها الاَّ حينما كان يذهب الى ارتريا بين سنة ١٨٩٠ و١٨٩٤ . وطبع طبعة جديدة من كتابهِ في قلب افريقية سنة ١٩١٨ بعد ان اضاف اليهِ اضافات كثيرة . ومجموعتاهُ النباتية والجيولوجية محروضتان الآن في متحف برلين انتهى

***

اما نحن فقد لقينا شوينفورث مرةً في بيت الدكتور غرانت بك بالقاهرة وكانت مسألة وادي الريان وجعلهِ خزاناً شاغلة الافكار وكان كوب هو يتهوس يحاول اقناعنا بصحة مشروعهِ حتى يؤيدهُ المقطم والمهندس يرون من وزارة الاشغال يحاول اقناعنا بفسادهِ فسألنا شوينفورث عن رأيهِ في ذلك من باب جيولوجي فقال انهُ لا يشير بجعل وادي الريان خزاناً لانهُ يحتمل ان تكون في الحاجز الذي بينهُ وبين الفيوم شقوق او نقط ضعيفة فاذا زاد ضغط الماء في الوادي تحلب الى الفيوم واغرقها . ومنذ عهد قريب كنا نكلم سري باشا وزير الاشغال في هذا الموضوع فرأيناهُ يرى ما رآهُ شوينفورث . اما نحن فبلغنا ان كوب هو يتهوس والسر وليم ولككس يقولان ان في وادي الريان آثار زراعة فاذا كان الامر كذلك فالماء كان فيهِ ولم يغرق الفيوم حينئذٍ فجعلهُ خزاناً اسلم عاقبة من جعل الخزانات في اعالي النيل ومفتاحها ليس في يد مصر . والذي فهمناهُ من سري باشا انهُ يحسب الفاصل الذي بين وادي الريان والفيوم غير كاف لمقاومة ضغط الماء اذا مُلئ وادي الريان وهذا لم يقل بهِ شوينفورث ولا السر وليم ولككس فالمسألة تستحق البحث ثانية حتى اذا وجدت آثار زراعة في وادي الريان كما قال كوب هو يتهوس انتفى كل محذور